بنيامين نتنياهو: إعادة إنتاج المشروع الصهيوني ضمن منظومة صراع الحضارات

Benjamin Netanyahu: Reproduction of the Zionist Project within the System of the Clash of Civilizations

المؤلف: مهند مصطفى

Muhannad Mustafa

عرض عبد العزيز محمود أبو عليان – Reviewed by Abdalaziz Abueleyan

يتناول هذا الكتاب شخصية بنيامين نتنياهو رئيس حكومة الاحتلال الإسرائيلي، حيث شكّل حالة فريدة في تجربة (إسرائيل) السياسية، فمنذ تأسيس دولة الاحتلال الإسرائيلي عام 1948م وحتى اليوم لم يتمكن أيّ من قياداته، رغم أن بعضهم من المؤسّسين ومن الجنرالات العسكريين الذين قاموا بأدوار كبيرة ومؤثّرة- من الاستمرار في الحكم لفترة زمنية طويلة كما فعل نتنياهو. فمنذ عام 1996م تمكّن نتنياهو من البقاء في رئاسة الوزراء لأربع دورات: الأولى ما بين 1996-1999، وثلاث دورات متتالية أخرى منذ 2009م، حتى الآن أي ما يقارب أربعة عشر عامًا. وتُعَدّ شخصية بنيامين نتنياهو من الشخصيات المركزية التي أدّت دورًا كبيرًا من خلال المنصب الوظيفي الذي تمتّع به.

يتمتّع نتنياهو بقدرته على اقتناص الفُرص؛ فهو أيديولوجي، لكنه برغماتي سياسي من حيث قدرته على اقتناص فُرص سياسية، واستغلال لحظات تاريخية؛ للتمترس أكثر في مواقعه الأيديولوجية، وبدون هذه الفرص السياسية فإن قدرته على (التمترس) أيديولوجيًّا تتراجع. فهو لا ينتج الظرف التاريخي؛ بل يستغله، إذ استغل نتنياهو الظرف التاريخي الإقليمي ولم ينتجه، واستغل البيئة الدولية المتغيّرة ولم يشارك في إنتاجها، ولكنه يستغلها جميعًا للعودة إلى مواقعه الأيديولوجية إذا سمحت له بذلك الظروف السياسية والتاريخية.

فنتنياهو في مجمل تصوراته الأيديولوجية والسياسية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية لا يختلف عن الفكر الصهيوني وفكر الجيل الأول من مؤسّسي الحركة الصهيونية ودول الاحتلال الإسرائيلي؛ فإن نتنياهو يُعَدّ في النهاية في موضعه زعيمًا للشعب اليهودي، لا رئيسًا لحكومة الاحتلال الإسرائيلي فحسب؛ أي هو زعيم الأمة اليهودية، وستكون هذه الخطوة مركبًا أساسيًّا في تأطيرها للصراع على أنه صراع حضاري، بين الحضارة الغربية التي ترتكز على الموروث المسيحي- اليهودي من جهة، والحضارة الإسلامية من جهة أخرى. في هذا التأطير للصراع يتحوّل نتنياهو إلى ممثّل ومنظّر ورأس حربة، وربما زعيم هذه الحضارة في مواجهتها للحضارة الإسلامية.

إن نتنياهو يتعامل مع ذاته على أنه شخصية تاريخية في صيرورة الشعب اليهودي، وُجدت لحماية الشعب اليهودي من الإبادة أوّلًا، وليست هناك شخصية يهودية قادرة على تحقيق ذلك غيره، وذلك نابع من فهمه الصحيح لطبيعة الصراع، ولاحقًا سوّغ تعامله مع ذاته بوصفه شخصية تاريخية في الحضارة الغربية، هدفها قيادة الحضارة، وتوجيهها نحو مسار الصراع الحقيقي، صراع الحضارات.

ولمعرفة المزيد عن شخصية بنيامين نتنياهو يسير بنا الكاتب مهند مصطفى في ثنايا كتابه ليُعرّفنا حقيقة هذه الشخصية الصهيونية، حيث تناول شخصيته في أربعة فصول وخاتمة. تناول في الفصل الأول الذي كان بعنوان قراءة سياسية في سيرة نتنياهو الشخصية من خلال ثلاثة محاور، شملت محور دخول نتنياهو الحقل السياسي بصفته خبيرًا في الإرهاب والإعلام، ومحور التحريض على رابين وفوزه برئاسة الحكومة، أمّا في المحور الأخير فقد تحدث عن جمهورية اليمين في دورة نتنياهو الأولى. ركّز الكاتب في هذا الفصل على تقديم قراءة سياسية لتاريخ بنيامين نتنياهو؛ لفهم المؤثرات الشخصية والسياسية التي بلورت شخصيته السياسية والفكرية. كما تناول الكاتب في هذا الفصل كيفية دخول نتنياهو إلى الحقل السياسي الإسرائيلي في عام 1982، حيث عزّز علاقاته مع الإدارة الأمريكية الجمهورية، ومع وسائل الإعلام الأمريكية، وكان يشدّد على علاقاته الشخصية مع رئيس الحكومة شامير، ووزير الدفاع أرنس، وكان يَعدّ نفسه أهمّ من السفير الإسرائيلي في واشنطن، وكان الظهور الإعلامي لنتنياهو في الولايات المتحدة الأمريكية، والمنصب الذي يشغله وهو مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة- مرحلة مهمّة في انطلاقته الشخصية القويّة في الحقل السياسي الإسرائيليّ بعد ذلك.

كما أشار الكاتب في هذا الفصل إلى عدد من التحوّلات المهمّة في الحياة السياسية لبنيامين نتنياهو، من أبرزها أنّ هذه المرحلة شكّلت بداية أفول الجيل القديم في السياسة الإسرائيلية وبداية صعود جيل جديد، وأنّها مهّدت لصعود جيل جديد داخل اليمين سينقلب على الجيل القديم، حيث انتصر نتنياهو في هذه المرحلة على أربع قوى مركزية، وقد شكّلت هذه الفترة بداية تأسيس المرجعية الدينية في حزب الليكود، وتسييس الجمعيات اليمنية، وربطها بمشروع هيمنة اليمين على الحقل السياسي والاجتماعي في (إسرائيل)، كما شكّلت هذه المرحلة نهاية اتفاق أوسلو، إذ لم يلتزم نتنياهو بباقي التعهدات الإسرائيلية في الاتفاق. وشكّلت مرحلته تغلغل المستوطنين في صفوف حزب الليكود.

وفي الفصل الثاني تناول الكاتب تشكيل أيديولوجية نتنياهو ببعدها الشخصي والفكري السياسي، حيث تناول تحليلًا للدور الذي أدّاه أبوه بنتسيون نتنياهو وشقيقته يوني نتنياهو في بلورة أو التأثير في فكر نتنياهو وتوجهاته السياسية، مع تأكيد أن مؤثرات فكرية وسياسية أخرى أدّت هذا الدور، وجعلت من نتنياهو يُبلور منظومة فكرية مختلفة في بعض مركباتها عن أبيه، ولكنها غير منفصلة عنه، كما تحدّث الكاتب عن سلطوية شخصية نتنياهو، ليكون لدى القارئ جزء من الخلفيات الفكرية والشخصية لهذا الرجل، وبيّن الكاتب أن نتنياهو يوظّف خطاب الخوف والتخويف من أجل تعزيز سلطويته وسيطرته على الحقل السياسي وعلى الوعي الجماعي للإسرائيليين؛ فخطاب الخوف يهدف إلى بقائه في السلطة، فهو يسوّق نفسه على أنه الوحيد القادر على تخفيف خوف الإسرائيليين، وتخفيف خوفهم من خوف أنتجه هو، ويعيد إنتاجه بشكل مستمرّ.

أوضح الكاتب في هذا الفصل أن نتنياهو يُعَدّ نموذجًا لزعيم يميني متطرف، يسعى إلى تجذير حكمه من خلال نزع شرعية خصومه، وهو يستعمل في ذلك خطابًا (شعبويًّا)، ووسائل الإعلام الحديثة في مقارعة خصومة في الداخل والخارج، كما يستعمل بكثرة صفحات التواصل الاجتماعي؛ ليعبّر عن استهتاره بالنظام الدولي القائم، والمؤسسات الدولية، ومهاجمة كل من ينتقد إسرائيل، متّهمًا إياهم بالجهل، أو معاداة إسرائيل، أو معاداة السامية. كما أوضح الكاتب أن نتنياهو يبلور خطابًا محليًّا ودوليًّا يحمل ثلاثة مركبات: استشراقي، وكولونيالي، وسلطوي. يتمثّل مركب نتنياهو الاستشراقي في خطابه: إنّ النظام الدولي

القائـم لا يفهـم طبيعـة التحـولات الجارية عـلى البيئة الدوليـة والإقليمية، و(إسرائيل) هـي الدولة الوحيدة في العـالم التـي تفهـم هـذا العـالم بالشـكل الصحيـح، ويتمثل المركب الكولونيالي في سياسـة نتنياهو بتكراره في خطاباتـه مقولتـه: إنّ (إسرائيل) هي رأس الحربة في العالم ضد الإرهاب الإسلامي. وفي المركب السلطوي بدأت تظهر سـلطويته في حرصه على تعيين شخصيات مقربـة منـه في المناصـب المهمّـة في السـلك الحكومي، حيـث بـات نتنياهو مهوسًـا بتعيين أنـاس مقرّبين منه، يتميّـزون بالإخلاص الشـخصي لـه بالدرجـة الأولى، ويزداد هوسـه بذلك كلـما زادت فتره حكمه التي أدت إلى زيادة أعدائه الشخصيين.

وفي الفصـل الثالـث شرح الكاتـب أيديولوجيـة نتنياهـو، وفكـره، وتأطـير المـشروع الصهيـوني ضمن صراع الحضـارات، بهـدف معرفـة فكـر نتنياهـو، وتصوراتـه الأيديولوجيـة، مـن خلال نصوصـه التي كتبهـا. وقد اعتمـد الكاتب في هذا الفصـل على مقولة الكتـاب الأساسـية التي تقـول: "إن نتنياهـو يعتقد أن المـشروع الصهيـوني جـزء من الـصراع الحضـاري بين الغـرب المسـيحي-اليهودي وبـين الحضـارة الغربية-الإسـلامية". كما يقـول نتنياهو أن المـشروع الصهيوني هـو رأس الحربة في هذا الصراع. وبّـين الكاتب في هذا الفصـل (بسـاطة) المنظومـة الفكريـة والأيديولوجيـة والسياسـية لنتنياهـو، التي عـبّر عنها في كتابـه: "مكان تحـت الشـمس" الـذي يضـع القـارئ أمـام إنسـان متوسـط الفكر من حيـث قدرته على إنتـاج النصوص الفكرية والمعرفية العميقة، لكنه ذكيّ سياسـيًّا. وقراءته وتحليلاته الفكرية والتاريخية متوسـطة المسـتوى، لكنّه يعرضهـا بطريقة ذكّيـة، بحيث تعطـي انطباعًا للقارئ العـادي من الجمهـور الهدف بأنّه طرح فكـريّ مُعمق، واطّـلاع تاريخي كبير، وهـو ليس كذلـك. وقد حافظ نتنياهو عـلى المقاربات الفكرية والأيديولوجية نفسـها منـذ السـبعينيات، ويكرّرهـا منـذ ذلـك الحـين، وهو لا يـدلّ عـلى مثابـرة في المواقـف فحسـب، وإنـما عـلى عـدم قدرته على التجديـد والتطوير وتقديـم مقاربات جديدة. ويتحدّث الكاتب في هذا الفصل بإسهاب عن تأطير نتنياهو للقضية الفلسطينية في الصراع الحضاري والتاريخـي بـين الغـرب المسـيحي والـشرق العـربي الإسـلامي، ويبّـين في سرد تاريخـي مقتضـب ومنزوع السـياق والتحليـل المعمّـق- أنّ الـصراع التاريخي بين المشروع العربي- الإسـلامي وبين المشروع الغربي يمتد إلى يومنا هذا، وأنّ القضية الفلسطينية هي جزء مركّب من هذا الصراع الحضاري.

أمّا الفصل الرابـع فقد أفرده الكاتب للحديث عن نتنياهو والفلسطينيين: (مصالحة فلسطينية مقابل تسوية إسرائيليـة). يُعَدّ هذا الفصل مرتبطًا بالفصل السـابق، يبـّين فيـه الكاتب أنّ تصـوّرات نتنياهـو الحالية تنطلق مـن مفهومي المصالحـة والتسـوية، فعلى الفلسـطينيين مصالحـة المـشروع الصهيـوني، بينـما عـلى الصهاينة أن يقوموا بتسـوية سياسـية مقابـل المصالحة الفلسـطينية. ويرى نتنياهو أنّ إنتاج شـعب فلسـطيني وهوية وطنية فلسـطينية كانـا مؤامرة عربية لإسـقاط حـقّ اليهود في فلسـطين، ويقـارن نتنياهو المـرة تلو الأخرى الشـعب الفلسـطيني الـذي يضعه بين مزدوجـين بالألمان الذين كانوا يعيشون في إقليم التشيكوسلوفاكي في ثلاثينيات القرن الفائت. وأشار الكاتب في تصوّر نتنياهو لمصالحة فلسطينية مقابل تسوية إسرائيلية إلى اعتقاده أن حلّ كلّ القضايا الجوهرية للصراع تتعلق باعتراف الفلسطينيين بالدولة اليهودية.

أمّـا الخاتمـة فقـد خصصهـا الكاتـب للحديث عن مفهوم سمّاه: "من صراع قومي إلى صراع حضاري".

قدّمت لنا فصول هذا الكتاب قراءة تحليلية لبنيامين نتنياهو: فكره، أيديولوجيته، سلوكه السياسي. وانطلق في صياغـة منظومته الفكريـة من المقولات التأسيسـية للفكر الصهيوني عمومًـا، ومن الفكر اليمين التنقيحي

خصوصًـا، ولم تكن أفكاره في العموم منقطعة عن هذه الأرضية السياسية والفكرية، فهو كولونيالي استعماري في تعاطيه مع الفلسـطينيين والقضية الفلسـطينية وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وفكره استشراقي في مقاربته للشعوب العربية والإسـلام والثقافة العربية– الإسـلامية، كـما يحمـل توجّهًـا سـلطويًّا في الممارسـة السياسـية. والحقيقة أنّ نتنياهو لا يختلف في نظرته عن مجمـل الفكر الصهيوني. إذ لا تنفصـل المميزات العامة الثـلاث لنتنياهو عـن هذه المقاربـة الحضارية للصراع، فجميـع هذه المميزات هي جـزء من الصراع الحضاري الذي يؤطره نتنياهو.

ختامًـا تميز نتنياهو عـن باقي القيـادات الصهيونية بأنـه يتعامـل مـع ذاتـه عـلى أنـه شـخصية تاريخيـة في صيرورة الشـعب اليهـودي، وُجد لحمايته مـن الإبادة، وليـس هناك شـخصية يهوديـة قادرة عـلى تحقيق ذلك غـيره، وذلك نابع من فهمه الـذاتي لطبيعة الصراع على أنه صراع حضارات. وتقدّم هذه الدراسـة للسياسيين في العالم العربي والإسلامي مادة معرفية أكاديمية تمكّنه مـن الوقوف عـلى حقيقـة مواقـف نتنياهـو وخلفياتها الفكريـة، خصوصًـا في ظـل مرحلـة تشـهد تطـورات وأحداثًا سياسية خلقت مشـهدًا سياسيًّا معقدًا تبدّلت فيـه الأولويـات، واختلّت فيـه البوصلة لـدى العديد مـن القوى والـدول في المنطقة؛ فأصبح المشـهد ضبابيًّا ومرتبـكًا إلى حـدّ أنّ البعـض أصبـح يـرى في دولـة الاحتـلال صديقًا يمكن التعـاون معه، وارتفع صوت المُطبّعين والمُنظرّيـن للتطبيـع مـع الكيـان الإسرائيلي. وقـد تمكّـن نتنياهو من اسـتثمار تلك اللحظـة التاريخية الصعبـة؛ ليقـدّم نفسـه صديقا للعـرب، ونبيًّـا جديدا لليهود، يقودهم نحو الأمن والاستقرار، ويقف معهم على أعتاب مرحلة تكون فيهـا "إسرائيل" جزءًا طبيعيًّا من المنطقة.